قرويّون يتكلمون ..

بقلم الدكتور جورج حنا

•

نزل علي مرة ضيف ثقيل الدم والروح ، وبقي راكباً على ظهري واكتافي اياماً اربعة ، بنهاراتها ولياليها ، وحبسني ضمن جدران غرفتي ، فتذرعت بالصبر ، هـذا الذي يسمّونه فرّاج الكروب .

على ان هذا الضيف ، الثقيل الدم والروح ، الراكب على ظهري ، على ثقالة دمه وروحه ، كان أخفّ وطأة عـليّ ، من الراكبين على ظهور الناس ورقابهم ، بخفة روحهـم ، وسلاسة حديثهم ، وتنميق اكاذيبهم ، وتزويق وجوههـم بالمزوقات الغشاشة . ضيفي الثقيل هذا ، شبع من الركوب بعـد ايام اربعة ، ورحل عني دون ان يسلبني ما هو من حقي وحدي ، او يمسّ حريتي بشيء . كان له حقٌ عليّ ، فاكتفى بأخـذه ، ولكنه ما حاول ان يسلبني ما ليس له في ذمتي ، عندما كان بمقدوره ان يفعل وانا في قبضة يده . « ابو الركب » هـذا الثقيل الخفيف ، اللص الشريف ، ما أهون شرّه امـام شرّ الراكبين على ظهور الناس ، السالبين كل حقوقهم ، الشادّين على خناقهم ، المتمتعين بما لأنفسهم وبما للآخرين ايضاً .

بعد هذه المداعبة السمجة من ضيفي الثقيل ، اشتاقت نفسي الى العزلة ، أنشد فيها راحة الجسم والبال ، واستردّ فيها مـا أضعت ، تاركاً المدينة في صخبها وضجيجها ، قائمة قاعـدة في زحمة الأحداث ، الفائرة الغائرة ، في لجٍّ من القيل والقال ، عما يشاع ويقال ويدبر ، في الأضواء وفي الخفاء .

ذهبت انشد غايتي في خلوة هانئة هادئة ، حيث لا سياسة تكذب ، ولا أحزاب تتشاحن ، ولا سهرات تنبش فيهـا فضائح الناس ، ولا جرائد تشوّش الأفكار ، ولا أفلام تشاهد على شاشتها البيضاء سواد الحياة الحليمة المقرفـة ، ولا سيارة هوجاء وسائقاً ارعن ، خلوة بعيدة عن الضجيج ، فيها الراحة والاستكنان وخلوّ البال .

وفي ذات صباح قصدت هضبة الأرز الخالد ، لأقضي في ربوعه اسبوعاً هادئاً . وقد عقدت النية ، على ألا أفسح مجالاً لما يعكر علي الاستمتاع بجوّ الطبيعة الصافي . فرصة من العمل ، ومن الضوضاء ، ومن مطالعة الصحف والأخبـار ، ومن احاديث السياسة وبهلوانية الحكام ، وقصص الانتخابات ، وما يرافقها من اساليب الفساد والافساد .

وما دريت ان الذي اجتنبته ، سألتقي بـه في اكثر البراري بعداً عن المدينة . فقد قادتني الصدفة ، ظهيرة يوم من ايام ذلك الأسبوع ، الى ورشة يشتغل فيها دزينة من الفعلة ، اثنان منهما دون العشر السنوات سناً . وما ان ألقيت عليهم السلام ، حتى بادروني بأحسن منه ، واخذوا يسألونـني عن المدينة ، وعمّا عندي من اخبار العالم ، وادركت انني امام نفر من ابناء لبنان هم ، عـلى الرغم من سذاجتهم الظاهرية ، مفطورون على الذكاء والبداهة والنكتة . وقد استأنس هؤلاء القرويون بي ، ووجدوا في حديثي معهم ، فرصة للاستراحـة بضع دقائق من ضرب المعول ونقل الحجارة . وفيما هم يمسحون بطرف سراويلهم ، العرق المتصبب عن وجوههـم ، رحت أتحدث اليهم ، والحديث الى عائلة البسطاء لا يخلو من الطرافة والفائدة لقوم يعقلون .

قلت لأحدهم ، وقد عرّفني انه أبو الفاعلين الصغـيرين : أليس حراماً عليك ان تشغل هذين الفتيين الطريين ، باشغـال ثقيلة شاقة ، ينوء تحتهـا جسماهما النحيفان ، بدلاً من ان ترسلهما الى المدرسة ، يتعلمان فيها على الاقل « فك الحرف » ؟ ألا تعلم انك بذلك تسيء الى الوديعة المقدسة ، التي وضعتها العنـاية في ذمتك ؟ وهذا الفتى الذي تحمّله « الصابورية » يخيل إلي انـه ضعيف البنية ، وقد يكون فيه علة ما ، وهو احوج الى طبيب منه الى الشغل .

فلاحت على وجه الأب بسمة من التأثر ، حجبت ثورة غضبه ، التي لم يمنعها من الانطـلاق ، السافر الجامح ، الا ملكة من التهذيب ، فطر عليها هؤلاء القرويون ، واجـابني بكثير من المرارة : « انكم معشر المدنيين ، تعيشون بالفلسفة ، وتكثرون من النظريات ، وتتصورون الدنيا كلها مدينة ، واهل الارض كلهم مثلكم ، وقد تظنون ان النعيم الذي ترتعون فيـه انتم ، نرتع فيه نحن ابناء القرى الفلاحين . انكم على ما يظهر بعيدون عنا وتجهلون احوالنا . اما مررت يا افندي بهذه الضيع المشرشرة في طريقك الى هنا ؟ أما شاهدت أبنـاء القرى كيف يعيشون وماذا يلبسون ؟ أما رأيت الاولاد مشردين في الأزقة والبراري ؟ قل لي من هم النازلون معك في الفندق الكبير يا خواجه ؟ أليسوا

كلهم غرباء عن هذه المنطقة ؟ إذ من منا تمكنه جيبه من النزول في مثل هذا الفندق ؟ نحن واولادنا ونساؤنا خدم لا اكثر ولا اقل . وليت هذه الخدمة قادرة على اشباع بطوننا . اننا نحرث الارض ليحصدها غيرنا، ونحدل الطرقات لتسير عليها سياراتكم الفخمة . اننا عبيد العمل الذي يستثمره اسيادنا . ألا قل لي يا افندي ، هل انت نائب ام وزير ؟

فقلت : لا هذا ولا ذاك .

قال : يبدو لي انك على شيء من النعمة ، فلماذا لا تشتري لك نيابة او وزارة ؟

قلت : أتهذي يا رجل، وهل النيابة او الوزارة سلعة تشرى؟

قال : وما هي إذن ؟

قلت : النيابة وكالة عن الشعب ، تعطيها انت وانا وهو ، لمن هو كفؤ بان يتولاها . ألم تُدعَ انت الى موسم الانتخابات لاعطاء صوتك لمن ترغب في أن يكون نائباً عنك؟ اما الوزارة، فهي ثقة يوليها الحاكم الاعلى ، لمن يستحقها ، وتؤيدها انت بواسطة النواب الذين انتخبتهم وكلاء عنك ، فتقوم هذه بمهامها الشاقة ، لمصلحتك ومصلحتي ومصلحة عامة الناس .

هنا اصابت صاحبي نوبة من الضحك وقال مقهقهاً :

— لقد نسبت لي الهذيان يا افندي ، فاعذرني إذا نسبته لك هذه المرة . سامحني يا افندي على وقاحتي . بوسعكم ان تضحكوا منا باقوالكم وكتاباتكم ، وبما تصدره الحكومة من بلاغات وبيانات وأوامر . إن هذا ليس اكثر من دعاية لتغطية السماء بالقباء . لكن حذار من ان تعتقدوا باننا مغفلون الى الدرجة التي تتوهمونها. نعم يا سيدي انا اذكر الرواية التي تسميها جنابك انتخابات ، ولو لم اكن اذكر ذلك جيداً ، لما سألتك لماذا لم تشتر لك نيابة او وزارة ؟ اقسم لك بالله وبالعذراء مريم، اني لم أوجّه اليك سؤالي هذا اعتباطاً، اذ اني عنيت ما اقول ، بل انت نفسك أطلقت على زمن الانتخابات اسم الموسم، والموسم على ما تعلم موسم سواء كان موسم زيتون ام موسم انتخابات. ان المدينة التي تسميها عاصمة ، اصبحت سوقاً للمتاجرة بالنيابات والوزارات والوظائف الحكومية . حتى مختارية الضيعة صارت بالمزاد . مختار ضيعتنا ابو طنوس ، دفع الفي ليرة حتى صار مختاراً ، والانكى انه صار مختاراً عن طريق الانتخاب . شيء مضحك يا خواجه ، الذين نسميهم حكاما وابطالاً ورجال الساعة هم الذين يتاجرون بنا، واكثرهم بطولة من يتحكم بالسوق اكثر من غيره . المرشحون للنيابة لا يعرفوننا الا وقت التصويت ، بعد ان يكونوا طبقوا الصفقة في المدينة ، مركز البورصة ، خلّها على الله يا افندي .

بذلك حدثني صاحبي الفاعل . ثم توقف فجأة عن الكلام ، وضرب الصخر بمعوله ضربة شقته الى قطعتين، كأنه شعر بتجدد في قواه ، بعد ان افرغ ما في جعبته من اللواذع ، وناداى ابنه الفتى ، ليأتيه « بالصابورية » . ولكنه عاد يرمقني بعينيه ليقول : عندما تعود الى مدينتك يا خواجة ، لا تنسَ ان تخبر القوم هناك ، ان في سفوح هذا الجبل ، اناساً هم من نفس الطينة التي جبلوا هم منها . قل لحكومتك ان لبنان ليس المدينة وحسب. قل للناس هناك ، اننا نحن القرويين نعيش من قلة الموت ، وان اولادنا ، كما تراهم بعينيك يا افندي ، محتاجون الى الغذاء والكساء ، ونحن لا نجدهما لهم الا بشق النفس ، وبواسطة هذا المعول الثقيل وهذه «الصابورية» التي تقصم ظهورهم . اما التعليم والتطبيب ، اللذان تتكلم عنهما بمثل هذه السهولة ، فمن اين لنا ان نوفرهما لهم؟ الحرب بالنظارات هينة يا افندي. قل لحكومتك ان تقتصد في بذخها واسرافها ومآدبها . ان الاموال التي تبذرها بلا حساب ، هي من معولنا ومن عرق جبيننا. قل لها انها هي التي تأكل خيرات ارضنا وتستثمر اتعابنا .

بالله عليك يا افندي، ان كان لك صلة بالحكام، ابلغهم حالتنا وشكوانا ، وقل لهم اننا لسنا مغفلين ، كما يخيل لهم ، وان لا بدّ للايام من منقلب .

« هات الصابورية » يا ولد . ان الشمس قاربت المغيب ، وعدد صابورياتك لم يكتمل بعد ! الا تعلم انك لن تتعشى الا نصف عشاء اذا بقي العدد ناقصاً ؟

عندها خشيت ان تكون زيارتي هي السبب في عدم اكتمال عدد صابوريات الفتى النحيل ، وخشيت ان ينام هذا الصغير المسكين بنصف عشاء ، فودعت الجماعة ، وفي قلبي غصّة ، وفي نفسي ثورة ..

وعندما عدت الى فندقي ، ايقنت ان ما نشدته من عزلتي لن احصل عليه . ففي ابعد قرية من لبنان ، حيث خيل اليّ ان الناس خالو الذهن، مما يجري في العاصمة ، من فساد وافساد ، ومؤامرات وتطبيقات ، تبين لي ان الخطر على هذه الامة اعم واشدّ ، مما كنت اتصوره قبل ان اغادر المدينة ، واتصل بمن لا يعرفون لها وجها ، ولكنهم على ما ظهر لي ، يعرفون عنها كثيراً ، وينقمون على ما يجري فيها كثيراً كثيراً .

جورج حنا